

صفحة من كتاب

حنين

الأستاذ شكرى فيصل

إلا هذه النجوم ... لقد كانت في منجاة ومأمن ... لكأن
عالمها الخلو، وشماعاتها المراقصة تكيد ليل وتحداه ... وكأنما
هى فى أنوارها الحنون تبت فى نقوس المحبين الوهلى الأضواء
الطروب ...

سيظل هذا الحنين التصل يهفو حول الأمل الناعم، ويغرد
فى حفافيه الندية ... وينثر عليه الورود والرياحين كما تنثر دينا
النجوم من عالمها العلوى ذراتها اللامعة فى أجنحة الليل السود

وسكن الكون ... واستلقى الليل على صدر الدنيا . ونشر
عليها أذياله وأردانه ... كأنما كان يريد أن يكتب فيها الحركة،
ويقتل فيها النشاط، ويقطع ما بينها وبين السماء ... كان كالساعات
اليائسة فى حياة المحبين ... مرهقة، مرهقة، ثقيلة الظل شديدة
الوطأة، كأنما تحاول أن ترين فتحول بيتنا وبين الرحمة ... ولكن
الرحمة القريبة لا تدع السبيل إلى اليأس، والحب القوى لا تقل منه
المصاعب، والسماء الكريمة لا تقطع ما بينها وبين الناس ...
إنها تشق ثوب الليل الصفيق لتنبث النجوم النيرة على ظهره
وفى أطرافه ومن بين يديه ... كما تنبت الخزامى فى الأرض
التفر عطرة الطيب، شذية الروح ... وأنها لتمزقه فى كل جوانبه،
وترقه فى كل ثناياه كما ترقم قطرات الماء سطح البحيرة الهادئ
بدواثرها المترجرجات

هكذا الحنين ... أيتها الكريمة الروم ... كهذا الليل ...
تضحك على جوانبه المزعجة بالأسى مئى، وترق فى ساعته المريرة
رؤى ... وتنتثر فى لياليه الكثيرة أحلام يضاء كهذه النجوم.

واستغرق الكون فى سكونه . وأحس الليل ما يلقى من عنت .
لقد فرض سلطانه تمزق ... ومد رواقه فتخرق ... ونشر جناحه
البهيم فهاض النور جناحه البهيم ... وغص بالحادثات ... والنجوم
من حوالبه رقص رقصة الظفر، وتشد نشيد الحياة، وتهزأ
هزا التحدى ... وترسم شعاعاتها دعوة كريمة للفجر المستكن .
وارتمى بفكر ... واستعرض تاريخه الطويل، وبكى بحمد

سكن الكون، ثم فى الكون إلهامات ... من حديث
النجم أوبت المحبين الشكاة ... ينفثون الآهة الحرى، ويلقون
السهاد ... وينادون محبيهم فهل يدري محبوبهم نداء؟ ... ويشور
السمع فى أجنابهم فيضاً غزيراً ... أترى يدرك ذلك الذين تطفر
الدموع من أجلمهم، وتتم الشفاء بالحنين إليهم، وينبض القلب
بذكرهم المستطاب؟!

سكن الكون، فثارت وحدتى تتلوى ... وتذكرت المهود
الزاهرات النضر ... وتراءت من أمانى صور الماضى القريب .
ومحما من صور ! فتهدت حزينا أسفاً، وتمت لها منصرفاً؛
وذرفت الدمع هتاناً إذ وجدت فى السمع خفوت السورة، وبرودة
الثورة، وبمض الغراء

... وصمت الليل، كأنما كان يعد على الناس أنفاسهم
التصاعدة ... وقد أووا إلى فرشتهم الدافئة، يجدون فيها الهدوء،
وينمسون فيها بالصفاء ... ويحسون أنهم يرتعون فى أحضان
الأبوة، وفى سماحة الأمومة، وفى جمال القرابة العانية
ودقت الساعة الثانية عشرة، وانبعثت ضرباتها على صفحة
الأفق الساكنة ... كأنما كانت اثنتى عشرة قطرة من الماء
تنصب على قطعة من الصفيح اللامع، فيكون لها برق متلألئ
كهذا الصدى الموهل فى جوف الظلام البعيد

وامتد رواق الليل كما يمتد حنين لإنسان غريب ... يدثر
الماضى ليجد فيه الذكري، ويتطلع إلى المستقبل ليفسح فيه فرجة
الأمل ... كذلك كان رواق الليل، لا يحتجزه حد ولا يقهره
سلطان، ولا يقف من دونه مائق ... كما لا يحتجز الحنين سلوى
ولا يقهره ضر، ولا تقف من دونه الدنيا بكل صورها وألوانها